رحلة صعودنا إلى الكنيسة
ورحلة نزولنا إلى العالم[1]

❀ ❀ ❀

معلوم أن الكنيسة هي بيت الله، بيت أبينا. ولِدنا في هذا البيت ولادةً من فوق، أي سماوية. وبمجرد خروجنا من معموديتنا أطعَمَتنا الكنيسة من جسد ربنا يسوع، وأسقتنا من دمه. وهكذا طيلة غربتنا في العالم، نصعد إلى الكنيسة (بيت أبينا) كل يوم ونأخذ منها قُوْتنا الذي للغد ثم ننزل، ومعنا الله، إلى العالم. نودُّ أن نبقى دائمًا فيها، ونقول جيدًا أن نكون ههنا، ولكن السحابة تختفي، ويوجد يسوع وحده في حياتنا، وينزل معنا إلى العالم. ولكن العالم ليس بيت أبينا، فنرجع ونصعد إلى الكنيسة ... ونستمر في معيَّة يسوع، نصعد وننزل طول غُربة حياتنا، إلى أن تَقْوَى عضلات إنساننا الداخلي، فننطلق إلى الرحب اللانهائي، حيث يُطعمنا الله من طعام الحقِّ إلى الأبد.

لقد أخذ الرب التلاميذ وصعد بهم إلى جبلٍ عالٍ ليُصلِّي، وهناك كانوا (كأنهم) في السماء، وشاهدوا موسى وإيليا معه بمجدٍ عظيم، واشتهوا أن يبقوا معه إلى الأبد، ولكن يسوع أخذهم ونزل معهم للعالم، ولا نعلم إن كانت حادثة التجلِّي قد تكررت معهم أم لا، ولِمَ لا؟

رحلة الصعود:

١ – الصعود اشتياقٌ وعطش: الاشتياق هو الحب الشديد، كقول النشيد: «أَسْنِدُونِي بِأَقْرَاصِ الزَّبِيبِ. أَنْعِشُونِي بِالتُّفَّاحِ، فَإِنِّي مَرِيضَةٌ حُبًّا» (نش ٢: ٥)، فالاشتياق يصل إلى المرض، وهذا الشوق يتحوَّل إلى عطش: «إِلهِي عَطِشَتْ إِلَيْكَ نَفْسي» (مز ٦٣). فواضح أن العطش هو إلى الله ذاته. في هذا الشوق نعيش كل أوقات وجودنا خارج بيت أبينا: «الْعُصْفُورُ أَيْضًا وَجَدَ بَيْتًا، وَالسُّنُونَةُ عُشًّا لِنَفْسِهَا حَيْثُ تَضَعُ أَفْرَاخَهَا» (مز ٨٤: ٣). لذلك ينبغي أن يكون لنا اشتياقٌ شديد إلى الله، وأن يكون هذا الهدف واضحًا عند الصعود لمذبح الرب، أو عند التناول.

٢ – نصعد لنُقدِّم ذبيحة الشكر: القداس، الإفخارستيا، هو سر الشكر. نشكره لأنه أعاننا وأتى بنا إلى هذه الساعة، نشكره لأنه خلَّصنا، نشكره لأنه ملأ الكلَّ فرحًا، نشكره لأنه في وسطنا

(١) مقالة للقديس القمص بيشوي كامل، نُشرت في مجلة مرقس، عدد يونيو ١٩٧٣، ص ٩.

فلن نتزعزع، ونشكره من أجل نعمة البنوَّة. إن القداس كله هو ذبيحة شكر.

٣ – الصعود توبة وتحقيق لغربتنا في العالم: الصعود يعني الارتفاع عن تفاهات العالم، عن شهواته ومراكزه، عن مجاملاته، مشاريعه: «أَسَاسُهُ فِي الْجِبَالِ الْمُقَدَّسَةِ» (مز ٨٧: ١)، «أَرْفَعُ عَيْنَيَّ إِلَى الْجِبَالِ» (مز ١٢١: ١).

في طريق صعودنا، سنجد الآب يركُض ويقع على عُنقنا ويُقبِّلنا، ويستمر في تقبيلنا بلا توقُّف، أما الابن فسنندهش عندما نجده واقفًا مؤتزرًا بمئزرة ليغسل أرجلنا ويمسح دموعنا. هذا هو سرُّ التوبة للنفوس الصاعدة لشركة جسد الرب.

نحن في العالم غرباء، وسنشعر فيه بالغربة، أما في القداس فنحن أصحاب بيت، بيت أبينا. ندخل ونخرج ونجد ظلًّا عِوضَ حر الشمس، ونجد مرعًى عِوضَ عيشة الخنازير. إنه بيت أبينا الذي يؤكِّد لنا غربتنا في العالم.

٤ – أصعد لآكل، لكي أحيا وأثبتُ فيه: إن العالم لا يقدر أن يُقدِّم إلا الطعام للجسد الترابي. بينما صوت الرب يرنُّ: «إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإِنْسَانِ وَتَشْرَبُوا دَمَهُ، فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ» (يو ٦: ٥٣). وعندما آكل تتأصَّل جذوري في المسيح، الكرمة الحقيقية، ولا أصير قصبةً في مهب ريح العالم، بل عمودًا في هيكل إلهي. وعندما أثبت فأنا أُثمر: «الَّذِي يَثْبُتُ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ هذَا يَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ» (يو ١٥: ٥).

٥ – نصعد لنقول قدوس مع الملائكة والقديسين: الكنيسة هي السماء، حيث يسوع وفيها ملائكته وقديسيه، إنها قمة جبل التجلِّي، هناك نتقابل مع القديسين، وبالأكثر القديسة المملوءة مجدًا العذراء كل حين.

والقداسة هي النغمة الوحيدة الحلوة التي يُردِّدها الجميع حول المذبح، ولا يوجد شيء غيرها، ودم يسوع له القدرة أن يستوعب أعظم شرورنا. وللحال نجد أنفسنا في السماء ونقول: "أصعدتَ باكورتي إلى السماء" (القدَّاس الإلهي)، ونُردِّد "إذا ما وقفنا في هيكلك المقدس نُحسَب كالقيام في السماء" (الأجبية).

٦ – نصعد لنمتلئ فرحًا ونعيمًا: "املأ قلوبنا فرحًا ونعيمًا ... كل حين نزداد في كل عمل صالح" (القدَّاس). العالم يملأنا حزنًا حتى نصل أحيانًا لليأس والفشل بسبب انتشار الخطية وقوتها في العالم، وأن أكثر قتلاها أقوياء. نأتي حزانى من أجل الذين لم يذوقوا بعد حلاوة محبة الله، ومن أجل المرضى والمظلومين والمأسورين والمتضايقين. نأتي إليها فنجد الرب يقول:

«تَعَالَوْا إِلَيَّ... وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (مت ١١: ٢٨)، «سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا» (يو ١٤: ٢٧)، «أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا» (مت ١٤: ٢٧). عندئذ أقف ثابتًا «أمام مذبح الرب الذي يُفرّح شبابي» (انظر مز٤٣: ٤). ونصعد إليك ونحن نئنُّ من أجسادنا ونقول طهِّرنا يا رب، ونسمع الكاهن يقول: "وطهَّرنا بروحه القدوس"، فالطهارة هي اتحاد بالله، عندئذ أقول: "وهبتني أن أشرب كأس دمك طاهرًا، أعطِني أن أمتزج بطهارتك سرًّا" (القدَّاس الكيرلسي).

٧ – ونصعد لنسأل الرب من أجل الجموع: نقول له: مَنْ يُشبع هذه النفوس الجائعة؟ لا يكفيهم ولا بمئتَي دينار، وليس عندنا. نحن نؤمن أن ذبيحتك لها القدرة لا أن تُشبع الخمسة آلاف خبزًا جسديًّا فقط؛ بل روحيًّا ونفسيًّا. لا يمكن أبدًا أن تخرج نفسٌ واحدة جائعة، بل تخرج حاملة قُفَّتها مملوءة خبزًا.

الصعود إلى بيت الرب هو صعود مع الرب يسوع خطوة خطوة إلى الصليب. لذلك فالصعود عملية صعبة، لا تتمُّ إلا بقوة الرب يسوع، وفي معيَّته وبمعونة صلوات القديسين.

أنواع من الناس يسيرون خلف الرب يسوع:

حينما كان يسوع صاعدًا في الطريق للصليب، كان يسير وراءه عيِّنات مختلفة من الناس، فمن أي نوع نحن يا تُرى؟

١ – هل نبكي أثناء القداس مع بنات أورشليم؟ نبكي بجهل على أي شيء غير خطايانا؟ فنسمع صوت الرب: "توبوا ... لا تبكوا عليَّ بل على خطاياكم وخطايا أولادكم" (انظر: لو ٢٣: ٢٨)، وهنا كَشَفَ الرب لنا أن طريق الصعود معه ينبغي أن يرتوي بدموع التوبة، وإدراك أن الذبيحة الموجودة على المذبح هي من أجل خطايانا.

٢ – أو نقف مع الجموع المتزاحمة خلف المسيح بدون وعي، كالحاضرين القداس الإلهي، كمجرد عادة بدون اكتشاف البركات العظيمة جدًا والخطيرة في ذبيحة القداس، ذبيحة الصليب.

٣ – أو نتحدث مع الرب حديثًا غير لائق، كحديث اللص الشمال، يتلخص كله حول النجاة من آلام الصليب وراحة الجسد. وهكذا تتحوَّل طلباتنا طول القداس من أجل الطعام والعمل والامتحانات، مع إننا نعلم أن الله يُعطي هذه للأمم. ينبغي أن نتذكَّر دائمًا أن القداس الإلهي هو صعودٌ إلى فوق لا نزول إلى الأرضيات.

٤ – ولكن علينا أن نصعد مع اللص اليمين الذي طلب الأمور السماوية. هذا اللص هو الذي انتفع من ذبيحة الصليب، فقدَّم توبة حقيقية، راجيًا من الله أن يذكره في ملكوته. إن رحلة

الصعود في القداس الإلهي ينبغي أن تكون على هذا المستوى: توبة، مع طلب السمائيات.

٥ – وعلينا أن نذكر المجدلية، فنقف معها تحت أقدام الصليب، حيث الدم يجري، ونذوق حلاوة التطهير وقوة الخلاص بالدم، ونذوب حبًّا في الحبيب المُعلَّق على الصليب، الذي حرَّرني من ماضيَّ المُلوَّث بالدنس. إن حضورنا القداس، هو من أجل التطهير بالدم من أدناس خطايانا.

٦ – وفي أعلى درجات صعودنا نأخذ بركة العذراء مريم، ونقف معها بجوار الصليب، نعيش معها وهي فَرِحة من أجل خلاص العالم، ومتألمة بسبب آلام ابنها. إن أعمق عبادة هي: اختيار الآلام مع يسوع من أجل الخطاة، ثم الفرح غير المحدود من أجل الخلاص الذي يُقدِّمه الله للعالم في ذبيحة القداس.

٧ – ولنحذر من طياشة أفكارنا وتصرُّفاتنا غير اللائقة التي نصنعها بجهلٍ وقت القداس.

٨ – وفي آخر مراحل صعودنا، نرتفع مع الرب على الصليب حتي نُعطي ظهرنا للعالم. لقد طرد العالمُ يسوعَ ثم صلبه. لقد كان يسوع قلب العالم النابض، ومن جهل العالم أنه طعن قلبه (أي قلب العالم) فحَكَمَ العالم على ذاته بالموت. لقد أصبح الصليب أعلى درجات الصعود مع المسيح، ومن هنا نبدأ رحلة نزولنا إلى العالم، وخدمتنا للعالم. فالعالم لا يُخدم من وسط العالم، ولكن من على الصليب، أي من ذبيحة القداس الإلهي.

الذي ارتفع مع المسيح على الصليب، لا بد وأن يكون قد ذاق قوة الموت عن العالم وقوة القيامة ثم قوة الصعود إلى السماء. وبهذه القُوَى الغالبة ننزل إلى العالم لنخدمه، ثم نرتفع بأولاده معنا مرة أخرى إلى فوق.

رحلة النزول إلى العالم:

١ – الصليب هو أعلى درجات الصعود، وأعلى درجات الموت. ومن عند الصليب نبدأ رحلة نزولنا، مائتين بذواتنا، ولكن يسوع الذي أخذناه حيٌّ فينا، نواجه العالم برائحة موتنا، وبرائحة المسيح الذكية فينا. ومن عند الصليب ننزل لنواجه العالم بفقر ذواتنا و بغنانا العظيم بالمسيح الذي فينا.

٢ – ننزل ونحن متأكِّدين أن سرَّ القداس الذي أخذناه لا يمكن للعالم أن يفهمه، ولكنه لابد أن يحسَّ ببركاته فينا. فننزل ونحذر ألا يُغرينا العالم بشيء ، بل نحسُّ أن العالم محروم من كل ما عندنا. لذلك نحترس لئلا يُسلب منا.

٣ – ننزل في معيَّة يسوع، ونحن هياكل للروح القدس، ننزل كجيش بألوية (نش ٦: ١٠)، إنه

جيش القديسين تحت قيادة الرب يسوع. إننا لا نعرف الهزيمة، لأن يسوع الذي أخذناه خرج غالبًا ولكي يغلب بواسطتنا (رؤ ٦: ٢). نخرج للعالم بقوة طهارة يسوع، وندوس بأقدامنا كل شهوات قلبنا، ونستأسر كل فكر لطاعة ومحبة المسيح.

٤ – ننزل للعالم بقلب يسوع، نحب العالم لا بقانون العين بالعين، الذي هو في مستوى بشريتنا، بل نحب بمستوى شركتنا للطبيعة الإلهية (٢بط ١: ٤)، ولكن لا نُقيِّد محبتنا بطبيعة مَن نحب.

٥ – ننزل للعالم بوداعة يسوع، ليس بقدرة بشريتنا على الاحتمال، بل بقدرة يسوع على احتمال آلام العالم كله، كما احتمل الشهداء ولُبَّاس الصليب ما لا يحتمله إنسانٌ بشرى في وداعة المسيح.

٦ – ننزل للحزانى ونُعرِّفهم أننا نلنا سرَّ الفرح العظيم، ونُعطيهم مِمَّا أخذناه، ونُجاوب كل مَن يسألنا عن سرَّ الفرح والرجاء اللذين فينا.

٧ – نحن لا نحلُّ مشاكل الناس، وليس لنا في ذواتنا شيء، بل بالعكس نحن نبدأ إرساليتنا من موت ذواتنا، ونُقدِّم يسوع للعالم، يسوع المريح، يسوع حامل الخطية، يسوع الوديع، يسوع المُحب للأعداء، يسوع الذي يُقيم الميت، ويُشدِّد الأعرج، يسوع مُشبع نفس سامرية هذا العالم وسط حر النهار.

٨ – نحن مسؤولون عن العالم، رغم أن العالم يُرهقنا جدًا، نحن ننزل إلى العالم، كنزول حمامة نوح، ونعود سريعًا إلى الفُلْك أي الكنيسة.

٩ – نحن ننزل للعالم بيسوع، ونعود سريعًا لنصعد إلى مذبح الرب لكي نتزوَّد بمؤونة حياتنا في العالم، لنا وللعالم، ونصعد لنُتمِّم اتصالاتنا بالوطن السماوي، ونُشبع أشواقنا نحوه. ومن عند الصليب نعكس اتجاهنا، وننزل إلى العالم مرة أخرى.

ويستمر يسوع يصعد وينزل بنا طول غربتنا في العالم. وفي النهاية تصبح جملة مرات صعودنا إلى مذبح الرب، هي القوة التي تصعد بنا إلى الأبدية السعيدة، آمين.